تنبهت الى سخف الفكرة الصهيونية . وتلاقي لذلك أشد العنت والاضطهاد من بقية اليهود — وادركت ان الحل الحقيقي للمسألة اليهودية — لا في فلسطين وحدها بل في العالم أجمع — لا يكون بالدعوة المدفوعة بعوامل الانانية القومية والتعصب العنصري، بل بالاشتراك المخلص مع بقية البشر في الوصول الى المجتمع الذي يكفل الامن والرخاء للجميع . لقد استطاعت هذه الطائفة أن تغسل عقولها وقلوبها من النظرة الصهيونية السقيمة الضيقة ، كي تعمل في تضامن حميم أمين مع جميع الساعين الى الاصلاح العميق ورفع المستوى الاقتصادي بين شعوب هذا الشرق »(١١).

أما الاسهام النظري الذي يستحق هذه التسمية ، فكان لانور كامل ، الذي أصدر في ١٩٤٤ كتاب « الصهيونية » .

ويروي أنور كامل قصة تأليف هذا الكتاب ، فيقول : « كانت تصلني بعض النشرات من الخارج ضد الصهيونية . وفي الداخل كان هناك غليان ضد الصهيونية ، وكشخص مهتم بقضايا الشعب المختلفة ، تصديت لدراسة هذه المسألة ، فجمعت بعض البيانات والاحصاءات والمعلومات ، وصغت منها هذا الكتاب . وكانت لي فيه وجهة نظر ، خلاصتها : ان اليهود لهم مشكلة فعلا ، لكن حل هذه المشكلة لا يجيء على حساب الشعب الفلسطيني. ثم وفي حالة قيام دولة يهودية في فلسطين لا تحل المسألة اليهودية، وانما الحل في مجتمع عالمي ، قائم على الحرية والمساواة . وتحايلا على القريب ، استخدمت في كتابي جملة « مركب الحريات جمعاء » ، وقصدت بها الحريات السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية. وقلت ايضا ان المشكلة لا يحلها الا « جيش التحرير الافقي » ، وقد فسرته للرقيب بأنه أحد جيوش الحلفاء ! في حين قصدت به « جيش الثورة العالمية ». وأذكر انني طبعت من هذا الكتاب الف نسخة ، لضيق ذات اليد»(١٢).

وبعد ذلك ، قدم المؤلف عرضا اقتصاديا تاريخيا للمسألة اليهودية ، عبر المراحل العبودية والاقطاعية والرأسمالية . فأشار الى « ان المسألة اليهودية كانت لا تبرز الى الوجود ... الا في فترات التقلص والانكماش » . ويضرب لذلك مثلا في الامبراطوريتين اليونانية والرومانية ، حيث لعب اليهود في مرحلة نموهما دورا بارزا في التجارة والاعمال المالية ، فكان « اليهود يمثلون هنا حاجة اجتماعية تاريخية . ساهموا في التوسع التجاري بأكبر نصيب ، وقدموا القروض الضخمة لاباطرة الرومان ، فمنحهم هؤلاء من الامتيازات ما نالوه في ظل الاسكندر ». وبعد تصدع الامبراطورية الرومانية « هنا ، وهنا فقط ، عمد هؤلاء السادة الى اتخاذ اجراءين : الاول التخلص من اليهود ، وقد كانوا دائنين لجزء كبير منهم ، والثاني خلق (كبش فداء) من اليهود ، يتحول اليه سخط الجماهير الثائرة . وهكذا ، بدأت حملات التطهير ضد اليهود ، ببدء التصدع في مجتمع العبودية القديم ... وهكذا بدأت تتولد لليهود (مسألة) ... لانهم كانوا قد بدأوا ، في ظروف التقلص الاجتماعي والانكماش التجاري ، يفقدون وظيفتهم ، او بتعبير آخر ، لانهم أصبحوا — في هذه الظروف — لا يمثلون الحاجة الاجتماعية التاريخية التي كانوا يمثلونها فيما مضى »(١٣).

وواجه اليهود الدورة نفسها في المجتمع الاقطاعي ، في حين أدت الرأسمالية الى تحرر اليهود التدريجي ، الا ان المجتمع الرأسمالي — بعد الازمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩ — ١٩٣٢) أخذ في التصدع ، وتعمقت متناقضاته « واذن ، فالى (كبش الفداء) التاريخي : الى اليهود ، كمركز للتصادم يمكن ان يتحول اليه سخط الجماهير الثائرة » . وهكذا بدأت ، منذ عام ١٩٣٣ ، في المانيا أشد الحملات تطرفا ضد اليهود ، بعد ان وصلت الفاشية الى الحكم(١٤).